الإسلام
فى
تصور أدباء وفلاسفة الغرب

دكتور
محمود حمدى زقزوق
عميد الكلية

تمهيد :

لقد انصب اهتمامى فى السنوات الأخيرة على بحث موضوع الإستشراق من عدة جوانب (١) ، وسيظل هذا الموضوع يشكل بالنسبة لى قضية أساسية نحتاج الى الكثير من الدراسة والبحث ، لأن الاستشراق — فى رأيى — يمثل الخلفية الفكرية للصراع الحضارى بين الشرق الإسلامى والغرب .

ومن هنا فإننا إذا أردنا أن نتعرف بطريقة سليمة على مواقف الغرب من الإسلام والحضارة الإسلامية فلا يجوز لنا أن نقف عند بعض الظواهر الوقتية العارضة ، بل يجب أن نبحث عن جذور هذه المواقف فى أعماق الفكر الغربى ، تلك الجذور التى ترسخت فى هذه الأعماق منذ

---

(١) لقد تمثلت حصيلة هذا البحث حتى الآن فى الكتب الثلاثة التالية :

١ — الاسلام فى الفكر الغربى (الطبعة الثالثة) دار القلم بالكويت ١٩٨٦ .

٢ — الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى (سلسلة كتاب الأمة) الطبعة الثالثة الدوحة قطر ، ومؤسسة الرسالة — بيروت ١٩٨٥ .

٣ — الاسلام فى تصورات الغرب — مكتبة وهبة (الطبعة الأولى ١٩٨٧) وذلك بالاضافة الى بعض البحوث الصغيرة فى الموضوع ذاته .

قرون طويلة بفعل مؤثرات عـديدة أهمها الاستشراق ، الذى يمتـد تأثيره الى العديد من المجالات فى التصورات الغربية إزاء الإسلام .

ولنأخذ مثالا واحدا من مجال التربية — فالطفل الأوربى يغذى ابتداء من المدرسة الابتدائية حتى المرحلة الجامعية بمعلومات خاطئة عن الإسلام تظل راسـخة فى أعماقه طول حيـاته ، وهذه المعلومات مبنية على تراث استشراقى — بالدرجة الأولى — له جذور ممتدة فى أعماق الفكر الغربى.

ولدينا فى هذا الصدد تجربة حديثة لدراسة هذا الجانب ، فقد قامت الأكاديمية العلمية الإسـلامية (٢) فى مدينة كولونيا (Koln) بألمـانيا الغربية بالتعاون مع مجموعة من العلماء والباحثين باجراء دراسة عن المعلومات الإسلامية الواردة فى الكتب المدرسية الألمانية .

وقد انصب المشروع على تحليل المعلومات الواردة عن الإسلام فى الكتب المدرسية التى تدرس فى كل الولايات الألمانية (يلاحظ أن كل ولاية لها كتبها الخاصة) .

والكتب المدرسـية المعنيـة هى الكتب الخاصة بتدريس الديـانة الكاثوليكية والبروتسـتانتية وكتب التاريخ والجغـرافيا وغير ذلك من مشروعات أو خطط مدرسية ، ويهدف المشروع الى تصـحيح المعلومات الخاطئة عن الإسلام فى هذه الكتب ، وقد اختـار الباحثون الكتب التى تدرس بالفعل فى الفترة من عام ١٩٧٩ حتى عام ١٩٨٥ . واهتمت الدراسة بصفة خاصة بابراز موقف الإسلام من بعض القضايا التى تحظى باهتمام خاص فى الغرب مثل قضية المرأة فى الإسلام وقضية الجهاد .

والهدف من وراء ذلك كله وضع تصور إسلامى سليم أمام المعنيين بوضع المؤلفات المدرسية التى تشتمل على معلومات عن الإسلام .

---

(٢) Islamische Wissenschaftliche Akademie

وقد تكفل معهد جورج اكرت للبحوث الدولية للكتب المدرسية فى مدينة براونشفيج .

(Georg - Eckert - Institut fur internationale Schulbuchforschung)

بنشر حصيلة هذه الدراسة فى أربعة أجزاء صدر منها حتى الآن جزءان يتراوح كل منهمـا ما بين ثلاثمائة — وثلاثمائة وخمسـين صفحة ، (٣) ويصدر الجزءان الآخران فى موعد قريب من هذا العام .

وقد أثبتت هذه الدراسة أن موقف أوربا بوجه عام تجاه الإسلام موقف سـلبى وغير عادل . ومن هنا تأتى أهمية دراسة الفكر الغـربى المشتغل بالإسلام وهو الفكر الاستشراقى .

فإذا كنا لم نحاول أن ندرس التراث الغربى ونحلله وننقده كما فعل الغربيون بتراثنا فعلينا على الأقل أن ندرس ما كتبوه عنا حتى نعـرف الأسـباب التى من أجلهـا كانت حملتهم الظالمة علينـا وعلى ديننا ومقدسـاتنا .

واذا كانت الدراسة المذكورة قـد اقتصرت على وصف الظـاهرة وتحليلها وتصحيح المعلومات الخاطئة عن الإسلام فى الكتب المدرسـية ولم تبحث عن الجذور الفكرية التاريخية لهذه المواقف المعادية للإسلام ، فان الحاجة تظل قائمة لدراسة كل ما يكتب عنا وعن ديننا فى السـابق واللاحق دراسة جذرية عميقة واعية حتى تكون مواجهتنا لذلك كله مواجهة

---

(٣) العنوان العام لهذه الدراسة بالألمانية هو « الاسلام فى الكتب المدرسية لجمهورية ألمانيا الاتحادية) .

(Der Islam in den Schulbuchern der Bundesrepublik Deutschland

ويختص كل جزء منها بعنوان فرعى بمضمون الدراسة التى يتناولها كل جزء على حـدة .

فالعنوان الفرعى للجزء الأول هو : تحليل كتب التاريخ فى موضوع الاسلام .

والعنوان الفرعى للجـزء الثانى هو : تحليل كتب الديـانة الانجيلية (البروتستانتية) فى موضوع الاسلام . وقد صدر الكتابان عام ١٩٨٦ فى مدينة (Braunsch weig) بألمانيا الغربية .

سليمة مبنية على دراسة عميقة تكشف عن الأسباب الحقيقية للمواقف الغربية إزاء الإسلام ولا تكتفى بدراسة الظاهرة من سطحها .

وإذا كنا قد أشرنا الى مثال من مجال التربية وأرجعنا ذلك فى أساسه الى الاستشراق فهناك مجال آخر جدير بالدراسة والبحث هو موضوع التصورات الأدبية والفلسفية حول الإسلام فى الفكر الغربى . وهذا المجال لم يأخذ حقه من البحث حتى الآن ولم يجد من يتصدى له ويتوفر على دراسته .

وقد يبرز هنا سؤال مشروع وهو :

أليست هذه التصورات الأدبيةُ والفلسفية حول الإسلام فى الفكر الغربى مبنية فى حقيقة أمرها على دراسات المستشرقين ولا تخرج فى عمومها عن هذه الدائرة ؟

واذا كان الأمر كذلك فما الداعى لافرادها بدراسة خاصة ؟

وهذا الاعتراض الذى يشتمل عليه هذا السؤال يتضمن نصيبا كبيرا من الحقيقة ولكنه ليس كل الحقيقة . صحيح أن الأدباء والفلاسفة فى أوربا — وهم فى عمومهم لا يعرفون العربية ويعتمدون فى معلوماتهم عن الإسلام على كتابات المستشرقين ، ولكن لا نستطيع على الرغم من ذلك أن ندخلهم جميعا فى دائرة الاستشراق ، فبعضهم لم يقتنع بما قرأ من دراسات استشراقية وكانت له نظرته المستقلة ورأى فيما قرأ من ترجمات استشراقية للقرآن ما لم يستطع المستشرقون رؤيته أو ما لم يريدوا أن يروه .

ومن أبرز هؤلاء — على سبيل المثال — الأديب والفيلسوف الألمانى الكبير جوته (Goethe) . ومن هنا تأتى مشروعية حديثنا عن التصورات الأدبية والفلسفية لأدباء وفلاسفة الغرب حول الإسلام حديثا مستقلا استقلالا نسبيا عن الدراسات الاستشراقية .

وليس هناك شك فى أن هذه التصورات الأدبية والفلسفية الغربية حول الإسلام تسهم بنصيب فى صياغة العقلية الغربية بصفة عامة ، وقد تؤثر بطريقة أو بأخرى أيضا فى الدراسات الاستشراقية .

وهذه نقطة قد تكون أيضا مجالا مفيدا للبحث ، فلعل هناك تأثيرا متبادلا بين الجانبين . وفى بحثنا هنا نريد أن نعرض بعض النماذج المختارة من التصورات الغربية الأدبية والفلسفية حول الإسلام ، ولن تقتصر هذه النماذج على الجوانب المظلمة فى الفكر الغربى فحسب ، بل ستشمل أيضا بعض النماذج المضيئة .

وقد اخترناها متنوعة لتعطى للقارىء نظرة على مساحة واسعة من الفكر الغربى . فمن الجانب الألمانى سنختار جوته بوصفه أديبا وهيجل بوصفه فيلسوفا ، ومن الجانب الفرنسى اخترنا فولتير بوصفه أديبا وبسكال بوصفه فيلسوفا ، وذلك بالاضافة الى إشارات الى جون لوك الفيلسوف الانجليزى ودانتى الأديب الايطالى وليسنج الأديب الناقد الألمانى وتولستوى الأديب الروسى ، وريموند لول أحد العلماء المسيحيين الأسبان من القرن الثالث عشر (٤) .

وكل هؤلاء يعدون فى بلادهم قممـا فى مجالاتهم ، وسنلتزم فى عرضنا لتصورات هؤلاء حول الاسلام بالتسلسل التاريخى بقدر الامكان .

---

(٤) نحن على يقين من أن كل موضوع من هذه الموضوعات يستحق بحثا خاصا وكتابا مستقلا حتى يمكن ان يوفى حقه من البحث والدراسة ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله ، ولعلنا نجد فرصة أخرى لتفصيل القول فى هذه الموضوعات أو بعضها ان شاء الله .

١ — ريمـوند لول . (٥)

لقد حاول لول طول حياته أن يقوم بعمل يستطيع من خلاله إقناع اليهود والمسلمين بعقائد المسيحية ، وكان يطمح فى تأليف كتاب يشرح فيه لأتباع هذين الدينين بأسلوب مفهوم — كما يقول — عقيدة المسيحية فى التثليث والتجسـيد . وقد عمل فى هذا الكتـاب أكثر من ثلاثين عاما وسماه : (فن العثور على الحقيقة) .

والذى يهمنا هنا ليس هو هذا الكتاب ، وانما نهتم بكتاب آخر له أسماء (الوثنى والحكماء الثلاثة) . (٦)

وهو كتاب يدور فيه حوار بين وثنى وثلاثة من علماء المسـيحية والإسلام واليهودية . وقد وصف لول فى هذا الكتـاب كلا من الوثنى واليهودى والمسيحى — الذين شاركوا فى الحوار — بأنهم حكماء ، فهم وان لم تكـن الحقيقة فى جانبهم كما يزعم ، الا أنه لا يشـك فى صدق نواياهم .

وهذا الكتاب وان كان فى موضوع النقاش الدينى فانه يمكن أن يدخل فى باب الأدب أيضا ، لأنه عبارة عن قصة أو رواية اخترعها خيال الكاتب ولا يلزم بالضرورة أن تكون وقائعها قد حدثت تماما كما يرويه . ومن هنا كان ادخالنا لهذا الكتاب ضمن التصورات الأدبية الغربية .

---

(٥) ريموند لول R. Lull (١٢٣٥ — ١٣١٦ م) ولد فى جزيرة ميورقة (مايوركا) الأسبانية بعد اجلاء المسلمين عنها ، وقد تعلم العربية على يد عبد عربى . وله مؤلفات باللاتينية والعربية والكاتالانية (لغة محلية) . وكان هدفه الذى ناضل من أجله طول حياته هو توحيد شـعوب العالم تحت راية المسـيحية .

(٦) Roman Lull : Buch vom Heiden und den drei Weisen. Herder , Freiburg 1986

ويرى لول أن الطريق الى التوحد الدينى يجب أن يبحث عنه فى أوساط الناس ، فهو طريق لا يمر — كما يقول — عبر الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش وانما عبر الاحترام المتبادل والبحث المشترك ، وبوجه خاص عن طريق الحوار ، وعلى الرغم من أن المتحاورين (المسـلم واليهودى والمسيحى) يعتقد كل منهم أن الحق ليس فى جانب صاحبه فانهم يتحدثون مع بعضهم ويبحثون عن طريق للوحـدة ، وكل منهم ينبغى أن يظل وفيا لضميره — فالمحاورة هنا ليست مسألة دبلوماسية .

وقد كان حلم لول يتمثل فى الأمل فى تحول التتار — الذين غزوا منطقة البحر الأبيض المتوسط فى ذلك الحين — الى المسـيحية ، وبذلك يمكن أن يشكل هذا التحول الضمان لسيادة المسيحية فى العالم كله ، ومع تعلق لول بهذا الحلم فقد كان يخشى فى الوقت نفسه أن يتحول التتـار الى الإسـلام .

وهذا ما قد حدث بالفعل وبذلك خاب أمل لول الذى أفاد هو نفسه فى كثير من مؤلفاته من مناهج علماء المسلمين .

أما عن كتاب لول (الوثنى والحكماء الثلاثة) فانه يصور فيه — كما أشرنا — حوارا دار بين ثلاثة من علماء الديانات السـماوية اليهودية والمسيحية والإسلام ، فقد التقى الثلاثة — كما يصور الكاتب — فى أحـد الغابات الوارفة الظلال الغنية بالأشـجار مع وثنى كان قد وصـل الى درجة اليأس فى بحثه عن قضية الحياة بعد الموت .

وبدأ كل من الحـكماء الثـلاثة يشرح تعـاليم دينه للفيلسـوف الوثنى (٧) وفى الحوار يذكر لول أن المسلم قبل أن يقوم بعرض تعاليم دينه قام وتوضـأ ، وهنا يزعم لول أن الوضوء عـلامة على الخطيئة

---

(٧) اكتفينا هنا بما أورده لول على لسان الحكيم المسلم ولم نتعرض لما ذكره على لسان المسيحى أو اليهودى لأنه خارج عن موضوع بحثنا .

الموروثة وعلى تطهير القلب ، ويقول أيضا إن المسلم بعد أن صلى قبل الأرض ، ومعلوم أن الإسلام يرفض ما يسمى بالخطيئة الموروثة .

فالمسئولية فردية والخطيئة لا تورث (٨) ، كما أن الإسلام لا يعرف تقبيل الأرض ، فكل ذلك ليس له وجود فى الإسلام اللهم الا فى خيال الكاتب .

ويعدد لول قواعد الإسلام على لسان المسلم ويصل بها الى اثنتى عشرة قاعدة على النحو التالى :

١ — الإيمان بوحدانية الله .
٢ — الإيمان بأن الله هو الخالق .
٣ — الايمان بأن محمدا رسول من عند الله .
٤ — الإيمان بأن القرآن شريعة من عند الله .
٥ — الإيمان بسؤال الميت فى القبر عن نبوة محمد .
٦ — الإيمان بفناء كل شىء ما عدا الله .
٧ — الإيمان بالبعث .
٨ — الإيمان بشفاعة محمد .
٩ — الإيمان بالحساب .
١٠ — الإيمان بالميزان الذى توزن به أعمال الناس طيبها وخبيثها .
١١ — الإيمان بأن الجميع يجب أن يمر بهذا الطريق .
١٢ — الإيمان بوجود الجنة والنار .

(٨) آيات القرآن الكريم صريحة وواضحة فى هذا الشأن ومنها على سبيل المثال : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » — (الانعام ١٦٤ ، الاسراء ١٥ ، فاطر ١٨ ، الزمر ٧) ، « كل نفس بما كسبت رهينة » (المدثر ٣٨) هذا فضلا عن أن الخطيئة المعنية وهى خطيئة آدم قد تاب منها وتاب الله عليه كما يقول القرآن الكريم (وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) (طه : ١٢١ — ١٢٢) .

ومن ذلك يتضح أن لول قد أغفل — عن جهل أو عن علم — الإشارة الى أن إيمان المسلم بالله يشمل أيضا — كما هو صريح القرآن الكريم والحديث الشريف — الإيمان بملائكته وكتبه ورسله ، والإيمان بالقدر خيره وشره . وقد جعل لول هذه القواعد الاثنتى عشرة فى مرتبة واحدة وهذا أمر يخالف اعتقاد المسلمين . وقد تكفل علم الكلام الإسلامى بتفصيل القول حول هذه الأمور العقدية تحت عناوين ثلاثة هى : الإلهيات والنبوات والسمعيات — ولسنا نشك فى أن لول قد اطلع على ما ذكره علماء الكلام فى هذا الشأن فقد كان يجيد العربية ويقرأ بها ما كتبه المسلمون عن دينهم .

ويلاحظ أن لول فى الحوار كان ينهى المناقشات فى بعض الاحيان باعتراضات يوجهها الوثنى للمسلم — وبذلك تظل هذه الاعتراضات دون اجابة ، هذا فضلا عن أنه لم يترك المسلم يتحدث فى الحوار الا عن ثلاث نقاط فقط وهى التوحيد والخلق وفناء كل شىء ما عدا الله .

ويقال إن كتب لول لم تنتشر فقط فى أوربا اللاتينية ، بل انتشرت أيضا فى شمال افريقيا ، ويقال أيضا أن هناك حوارا اسلاميا مسيحيا تم فى مدينة فاس المغربية عام ١٣٩٤ وأن السلطان قد أشار فى هذا الصدد الى كتاب من تأليف لول ، ويقال أيضا إن السلطان قد أبدى اعجابه بهذا الكتاب الذى كتبه لول بالعربية وشرح فيه عقيدة التثليث المسيحية — ويزعم (تشالرز لور) فى مقدمته لكتاب لول أن السلطان قد لاحظ أن هذا الكتاب الذى شرح فيه لول عقيدة التثليث قد بدا له كما لو أنه قد كتب بيد ملك من الملائكة (٩) .

يتضح لنا من هذا العرض الموجز لما فى كتاب لول عن الإسلام أمران:

(٩) انظر ص ٢٤ - ٢٥ من المقدمة التى كتبها Charles Lohr لكتاب لول (الوثنى والحكماء الثلاثة) .

أولا : الفهم الخاطىء لبعض تعاليم الإسلام من ناحية وعدم إعطاء فرصة كاملة للحكيم المسلم فى الحوار لشرح كل تعاليم عقيدته من ناحية أخرى • وفضلا عن ذلك فان الأخبار المنسوبة الى السلطان وما يزعم أنه ورد على لسانه بصدد كتاب لول عن عقيدة التثليث تعد لونا من ألوان الدعاية المسيحية لعقيدة باطلة •

ثانيا : لقد كانت محاولة لول للحوار بين الأديان — فى مبلغ علمى — أول محاولة من نوعها يتبناها الجانب المسيحى الكاثوليكى بهدف توحيد شعوب العالم تحت راية واحدة هى راية المسيحية ، والذى يتم اليوم برعاية الكنيسة الكاثوليكية من حوار بين الأديان وآخرها المؤتمر الكبير الذى عقد برعاية بابا الفاتيكان عام ١٩٨٦ (١٠) مبنى على محاولة لول فى القرن الثالث عشر ولخدمة نفس الغرض •

ومن هنا تتضح أهمية البحث عن جذور مثل هذه الظواهر المعاصرة فى أعماق الفكر الغربى لفهم أبعادها وما ترمى اليه من أهداف (١١) •

---

(١٠) عقد هذا اللقاء — اذا لم تخنى الذاكرة — فى احدى المدن الايطالية وسمى باسمها فاطلق عليه لقاء اسيسى ، وحضره ممثلون من جميع الديانات السماوية والأرضية •

(١١) فكرة الحوار بين الأديان تنطلق منذ عصر لول حتى الآن من الجانب المسيحى فى الغرب ولا يمل دعاة هذه الفكرة من طرحها والالحاح عليها — ونحن — وان كنا نعلم تماما ما يرمى اليه الجانب المسيحى الغربى من وراء طرح هذه الفكرة بعد أن كشفنا عن جذورها وهدفها لدى لول — نود أن نفرق بين نوعين مختلفين من الحوار هما :

أ — حوار حول العقائد التى تشتمل عليها الأديان — كما فعل لول — وهذا حوار قد أثبتت الأيام حتى الآن أنه حوار محكوم عليه بالفشل • فلا جدوى منه ولا فائدة ترجى من ورائه ، ويعد مضيعة للوقت وللجهد فى غير طائل • فالاسلام لم يأت فقط مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، بل أتى ايضا مهيمنا على ما سبقه من كتب وشرائع ، وحاكما على ما فيها من صواب وخطأ وحق وباطل ، وهذا مالا تريد الأطراف الأخرى أن تسمعه أو تخضع له • ومن ناحية أخرى نود أن نشير الى ان الاسلام لم يرفض من حيث المبدأ فكرة الحوار العقدى =

. . . . . .

=مع أهل الكتاب، بل طرح القرآن هذه الفكرة بوضوح تام وذلك فى قوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » (آل عمران:٦٤) • ويقتضى هذا الحوار بطبيعة الحال أن تكون هناك مناقشات ومجادلات بين الاطراف المتحاورة • وقد أمرنا الاسلام أن تلتزم فى ذلك بأدب الاسلام فى الدعوة وهو الجدال بالحسنى — وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم » (العنكبوت : ٤٦) • وستظل هذه الدعوة الاسلامية الى الالتقاء على كلمة سواء — كما أشارت الى ذلك الآية الكريمة — ستظل قائمة الى أن تقوم الساعة • فاذا رفض الآخرون الحوار على هذا الأساس الذى ليس فيه اجبار لهم على ترك دينهم وحاولوا — كما يحدث الآن — توجيه الحوار الى اتجاه آخر لحاجة فى نفوسهم فإننا نقول لهم ما يقوله القرآن الكريم فى هذا الصدد « اشهدوا بأنا مسلمون » ، « لكم دينكم ولى دين » •

ب — حوار حول ما تشتمل عليه الاديان من قيم انسانية ، وهذا مجال ثرى لا يغيض ماؤه ابدا ، وفى وسع المسلم ان يغترف بلا حدود من هذا المنبع الفياض ويعرض على الآخرين ما فى الاسلام من قيم رفيعة ومبادىء سامية وأخلاق نبيلة ومثل عليا • وفى اعتقادى أنه لا حرج على المسلم أن يشترك فى مثل هذه اللقاءات لعرض هذه الكنوز الغالية على الآخرين • وقد اشترك كاتب هذه السطور فى لقاء من هذا النوع فى نوفمبر من العام الماضى (١٩٨٦) فى سانت مرجن St. Maergen بالقرب من فرايبرج بألمانيا الغربية وقدم فيه بحثا عن (المسئولية العالمية فى نظر الاسلام) كما قدم الاستاذ عبد الجواد فلاتورى مدير الاكاديمية العلمية الاسلامية فى كولونيا بالمانيا بحثا حول (مفهوم الرحمة فى القرآن الكريم) • وقد اشتمل البحثان على معلومات اسلامية كانت خافية على المشتركين فى هذا اللقاء ، بل كانت جديدة تماما على مسامعهم • وأحسب أننا لا ينبغى أن نحجم على اغتنام مثل هذه الفرص ، فلعلها تكون بالنسبة للاخرين بابا يجذبهم الى ما فى هذا الدين من عقائد وتعاليم تتمشى مع العقل السليم والفكر المستقيم •

وقد كان من بين نتائج الحضور الاسلامى فى هذا اللقاء أن عرض الدكتور هردر — وهو صاحب واحدة من أكبر دور النشر فى ألمانيا ، ويقوم بدور فعال فى دعم هذه اللقاءات التى تعددت خلال العقدين الأخيرين ، وينشر ما يلقى فيها من بحوث — عرض اقتراحا بترجمة مختارات من صحيح البخارى الى اللغة الالمانية وتعهد بنشرها • =

٢ ــ دانتى : (Dante)

وفى زمن معاصر للفترة التى عاش فيها ريموند لول عاش الأديب الايطالى الشهير دانتى (١٢٦٥ ــ ١٣٢١ م) صاحب الكوميديا الإلهية الشهيرة التى أثبت البحث أنها متأثرة برسالة الغفران لأبى العلاء المعرى وبقصة الإسراء والمعراج ، فقد قام أسين بلاسيوس المستشرق الأسبانى المعروف ــ ببحث تأثيرات الفكر الإسلامى فى الكوميديا الإلهية وتصدى يومها لهجوم آلايطاليين الذين عز عليهم أن يفجعوا هكذا فى علمهم الأكبر ومناط فخارهم دانتى .

والأمر الذى يهمنا هنا هو أن (الكوميديا الإلهية) لدانتى قد تعرضت لنبى الإسلام . ولكن مترجم الكوميديا الإلهية الى العربية قد حذف الجزء الخاص بمحمد ﷺ حتى لا يجرح الشعور الدينى لدى المسلمين ، ولكن هل يجدى فى شىء عدم ترجمة هذا الجزء ؟ اللهم الا أن نكون مثل النعامة التى تخفى رأسها فى الرمال ظنا منها أنها ستكون بمنجاة من الصياد !

يصور دانتى محمداً ﷺ فى « الكوميديا الإلهية » بوصفه واحدا من أولئك الذين أثاروا النزاع والشقاق فى العالم وجلبوا عليه الخراب والدمار ، ومن أجل ذلك يجعل دانتى مكانه مع هؤلاء فى قاع جهنم يعانون ويتمزقون .

ويرسم دانتى لمحمد صورة دموية يرى فيها وقد شج جسده من أعلى الى أسفل ويقوم بتمزيق صدره قائلا : انظروا كيف أمزق نفسى وأمثل بها !

= وتنفيذا لهذا الاقتراح سأقوم بعون الله بالاشتراك مع الدكتور عبد الجواد فلا توى باختيار وترجمة مجموعة مناسبة من الاحاديث النبوية من صحيح البخارى مع التعليق عليها لتكون فى متناول الراغبين فى التعرف على الاسلام من منابعة الأصلية .

ولا ينسى دانتى أن يصور علياً رضى الله عنه أيضا باكيا مشجوجا من رأسه الى أسفل ذقنه ــ ويتكفل أحد الشياطين بتمزيق هؤلاء جميعا باستمرار مرة بعد أخرى فى الجحيم . (١٢) .

تلك كانت صورة نبى الإسلام فى خيال واحد ممن تضعهم أوربا فى مصاف عظماء الأدب فى العالم . والأمر المؤسف حقا أن تنحدر هذه العبقرية الأدبية فى تصويرها لنبى الإسلام الى مستوى ذلك الخيال المريض الذى كان رائجا بين عامة الشعب ورعاعهم فى ذلك الزمان حيث كان هذا الخيال يتغذى من الأساطير وينسج صوره من الخرافات والأوهام .

لقد كان ذلك العصر بحق ــ فى موقفه من الاسلام ــ هو (عصر الجهالة) كما أطلق عليه ذلك « سذرن » فى كتابه (نظرة الغرب الى الإسلام فى العصور الوسطى » (١٣) .

٣ ــ بسكال ــ : Pascal

اذا كان دانتى قد عاش فى نهاية العصر الوسيط فى أوربا ، فان المنتظر أن تكون الصورة فى بداية العصر الحديث (القرن السابع عشر) قد تغيرت تماما عن ذى قبل فيما يتصل بالإسلام حيث شهد الفكر الأوربى ذلك العبور الكبير من عصر الظلام (كما كان الأوربيون أنفسهم يسمونه The Dark Age) الى العصر الحديث عن طريق عصر النهضة .

ولكن الملاحظ أن هذه القفزة الكبيرة فى تاريخ الفكر الأوربى لم يصاحبها تغيير كبير فى النظرة الى الإسلام ، فقد كان التغير بطيئا ولم

---

(١٢) Dante : Die Gottliche Komodie. P. 124 (Munchen 1978)

(١٣) قام بترجمة هذا الكتاب . د . على فهمى خشيم ود . صلاح الدين حسنى ونشرته مكتبة الفكر بطرابلس ــ ليبيا ١٩٧٥ م . انظر (ص ٤٨ وما بعدها) .

تظهر بوادر ذلك التغيير إلا فى القرن الثامن عشر كما سنتعرف على ذلك فيما بعـــد .

ولكننا نود هنا الآن أن نلقى نظرة سريعة على تصورات واحد من فلاسفة القرن السابع عشر للإسلام وهو الفيلســوف الفرنسى الشهير بسكال (١٦٢٣ — ١٦٦٢) .

يعتبر بسكال — فى كتاب له بعنوان (خواطر حول الدين) محمداً ﷺ العدو اللدود للكنيسة ، ومن هنا كان بسكال حريصا كل الحرص على محـــاربته .

وفى كتابه المشار اليه يتناول محمداً ﷺ فى تسع شذرات من بين الشذرات التى يضمها هذا الكتاب ، ويعقد بسكال فى احدى هذه الشذرات مقارنة بين محمد والمسيح تطلعنا بوضوح على موقف بســكال من نبى الإســـلام .

يقول بسكال فى هذه المقارنة ما يأتى :

أ — لم يتنبأ العهد القديم بظهور محمد فى حين تنبأ بظهور المسيح .

ب — لقد دأب محمد على اقتراف القتل فى حين أن المســيح لم يقترف القتل قط ، بل كان يدع أتباعه يقتلون .

ج — لقد كان محمد يحــرم القراءة فى حين كان الحــواريون يأمرون بالقـــراءة .

د — لقد صادف محمد نجاحا دنيويا فى حين كان المســيح مغلوبا على أمره ، وقد انتهى به الأمر الى الصلب ... الخ .

ويزعم بسكال أن محمداً لم يأت بشىء من المعجزات التى يمكن أن تكون دليلا على صدقه ، وفضلا عن ذلك فان تعاليمه لم تشتمل على شىء

من الأسرار كما هو الشأن فى المسيحية ، وينكر بسكال على محمد — كما يزعم — تلك الأخلاق السيئة التى أتى بها ، كما ينكر عليه تصــوراته الحسية للجنة ونعيمها .

ويقول أخيرا إنه لم يجد فى هذا الدين سببا يحمله على قبوله لأنه دين لا يشتمل على أية أمارة من أمارات الحقيقة ! (١٤) .

ولا يخفى على القارىء ما تنطوى عليه كل هذه المزاعم من زيف وبطلان ، فالإسلام على العكس تماما من تلك الصورة الجهولة التى كانت فى ذهن بســكال .

وقد كنا ننتظــر من بسكال الفيلسوف أن يكون منصــفا فى نظرته للإسلام ، فالفلسفة تعنى البحث عن الحقيقة ، وتعنى التجرد والنزاهة والموضوعية ، وترفض التقليد وقبول الأحكام المسبقة والانسياق وراء الأوهام والخرافات .

ولكن بسكال كان فى موقفه من الإسلام يفتقد كل هذه الصفات ، وبرهن على جهل فاضح ، وراح يتبنى الآراء الكاذبة الســائدة حينذاك حول الإسلام ونبيه شأنه فى ذلك شأن رجل الشارع فأساء بسكال بذلك لنفسه وللفلسفة وللحقيقة بصفة عامة .

٤ — جــون لوك :

أما جون لوك — John Locke — (١٦٣٢ — ١٧٠٤) الفيلسوف الانجليزى الذى كان معاصرا لبسكال ، فانه وان لم يتعرض للإسلام بطريق مباشر الا أنه حيز أراد أن يبرهن على نظريته فى المعرفة ، والتى

---

(١٤) G. Pfannmueller : Handbuch der Islamliteratur , P. 149 (Berlin - 1923)

تفكر أن تكون هناك أفكار فطرية فى النفس الإنسانية ، قد اعتمد — من بين ما اعتمد عليه — على أقوال لبعض كتاب الرحلات ، وعلماء الأجناس البشرية للبرهنة على اختلاف التصورات الأخلاقية لدى مختلف الشعوب ليصل بذلك الى ما يريده من إنكار للأفكار الفطرية (١٥) .

وفى هذا الصدد يقول جون لوك فى كتابه (دراسة فى العقل البشرى) وهو كتاب لم يترجم بعد الى العربية : إن الأولياء لدى الأتراك — ويعنى هنا المسلمين — يسلكون سلوكا لا يمكن أن يتحدث عنه المرء دون جرح للأدب ، وينقل لوك عن الرحالة الألمانى باومجارتن (Baumgarten) ما يزعم هذه الرحالة أنه شاهده من عادات لدى المسلمين فى رحلاته عام ١٥٠٧ م فى مصر وبلاد العرب وفلسطين .

ويروى هذا الرحالة قصصا يزعم أنه شاهدها فى مدينة بلبيس بمصر تعبر عن اعتقاد المسلمين بأن البلهاء والمعتوهين يعدون من أولياء الله ، ويقول انه قد شاهد أحد هؤلاء الأولياء المزعومين يجلس عاريا كما ولدته أمه وسط كومة من الذباب والزنابير ، وكان يقترف الفواحش مع الحيوانات .

ويقول هذا الرحالة انه قد سمع أن أمثال هؤلاء الأولياء يتمتعون بحرية لا حد لها تصل الى حد ارتياد البيوت واقتراف الفواحش داخل هذه البيوت ، ولا يعد ذلك أمراً منكرا ، بل يعد من الأمور التى تجلب البركة .

وإذا نتج عن اقتراف هذه الفواحش أطفال يعدون أيضا مباركين ، ويتبرك الناس بهم وتقام لأمثال هؤلاء بعد موتهم أضرحة فاخرة .

John Locke : Uber den menschlichen Verstand. II, P. 60 (15) (Berlin 1962)

هذا نموذج مما ذكره الفيلسوف الانجليزى جون لوك ، وهو بذلك يبرهن على أنه ليست لديه أدنى معرفة بالإسلام ، فالإسلام ليس مساويا لعادات المسلمين ، هذا فضلا عن المبالغات التى لا يصدقها العقل ، تلك المبالغات التى اشتملت عليها رواية الرحالة الألمانى ، والتى أخذها لوك دون أدنى نقد أو تمحيص ، الأمر الذى يتناقض مع ما تتطلبه الفلسفة من فحص الأحكام السابقة والآراء الشائعة ، والتحقق من صدقها وثبوتها ، وهذا ما لم يفعله الفيلسوف شأنه فى ذلك شأن بسكال .

٥ — ليسنج :

وفى القرن الثامن عشر نتعرف على أديب ألمانى وناقد وكاتب مسرحى هو (ليسنج) Lessing (١٧٢٩ — ١٧٨١) . لقد قام ليسنج فى عام ١٧٧٣ بنشر كتاب لمؤلف مجهول (يعتقد أنه مؤلف من عصر التنوير اسمه صمويل رايماروس) وقد اشتمل هذا الكتاب على هجوم عنيف على المسيحية بوصفها عقيدة مناقضة للعقل . وقد صادف هذا النقد قبولا لدى ليسنج .

ويؤثر عن ليسنج قوله : « لو كان الله فى يمناه كل الحقيقة وفى يسراه الدافع للبحث عن الحقيقة ، وخيرنى لاخترت ما فى يسراه فى خضوع وقلت : يا ربى ان الحقيقة الخالصة هى لك وحدك » .

وقد قام ليسنج فى عام ١٧٧٩ بتأليف كتاب بعنوان (ناتان الحكيم) (١٦) .

ويعد هذا الكتاب من أهم أعماله ، وهو عبارة عن مسرحية شعرية يصور فيها ليسنج وجود الأديان السماوية الثلاثة (الإسلام والمسيحية واليهودية) بجوار بعضها متعايشة فى القدس ، ويمثل السلطان صلاح الدين واحدا من أبرز شخصيات هذه المسرحية الشعرية .

Lessing : Nathan der Weise. Muenchen 1960. (١٦)

ويرى ليسنج أن كلا من هذه الأديان الثلاثة يشتمل على نواة الدين الأصلى ، وحكمة ناتان تتمثل فى أنه قد أدرك هذه الحقيقة ويعمل على توضيحها للآخرين .

ويبرهن على السماحة فى كل خطوة من خطوات حياته ، ويرمز ليسنج بالطوق الى ارتفاع كل التناقضات القومية والدينية بين الأديان والشعوب ، ولكن ذلك لا يصل الى حد الذوبان .

فكل إنسان يعترف باقتناع الآخر ولكنه مع ذلك يحتفظ بصيغة حياته التى تلقاها عن طريق مولده وتربيته ، فالأديان تلتقى بالنسبة له فيما هو جوهرى ، وهو المعنى الإنسانى الذى يمكنها من التعايش فى ظل التسامح والعدالة .

وفى آخر كتبه وهو (تربية الجنس البشرى) (١٧) يرى أن حقائق العقل لا تدرك إلا عن طريق عون الهى .

وكل الأديان تمثل محطات دخول الى طريق الجنس البشرى نحو الكمال ، ومن ذلك يتبين لنا مدى حياد ليسنج بالنسبة للإسلام وللأديان السماوية بصفة عامة .

أما تحديد موقفه من الإسلام بصفة خاصة فانه يبدو لنا بوضوح فى بعض أعماله الأخرى . ففى مؤلف له بعنوان (انقاذ هـ . كاردانوس) (١٨) يعبر ليسنج عن اقتناعه بأن الأخبار التى كانت رائجة فى القرن السادس عشر عن محمد وتعاليمه كانت أخبارا قاصرة جدا

---

(١٧) Lessing : Die Erziehung des Menschengeschlechts. Stuttgart 1962

(١٨) كاردانوس (١٥٠١ — ١٥٧٦) طبيب ايطالى وعالم فى الرياضيات، كتب سيرة حياته بنفسه وله جهود فى مجال الرياضيات معروفة باسمه .

ومختلطة بالكثير من الأكاذيب التى كان المجادلون المسيحيون يقومون بترويجها على أنها حقائق .

ويشير ليسنج الى أن أول معرفة أمينة عن محمد وتعاليمه قد جاءت عن طريق مؤلفات كل من ريلاند وسيل (١٩) تلك المؤلفات التى أظهرت أن محمداً ليس دجالا عابثا ، وأن دينه ليس — كما يشاع — مجرد نسيج من الأباطيل والمتناقضات .

وعلى الرغم من هذه العبارات الطيبة عن الإسلام من جانب ليسنج فانه فى مؤلف آخر بعنوان (شذرات فولفنبوتل) قد خلط بين الإسلام كدين وتعاليم وبين عادات وتقاليد أو سلوكيات معينة سلبية للأتراك العثمانيين فى ذلك الزمان — وقد كانت الدولة العثمانية لا تزال حينذاك ذات قوة مؤثرة فى العالم وكانت أوربا لا تزال تخشى بأسها وتحسب لها ألف حساب .

ولكنه فى الوقت نفسه يعيب على معظم الناقدين للإسلام بأنهم لم يطلعوا على القرآن ويشير الى أن معظم من قرءوه قد قرءوه بنية سيئة .

ويسوى ليسنج بين الإسلام وبين الدين الطبيعى ، ويشير الى بعض الأقوال الإيجابية عن الإسلام لبعض العلماء مثل :

توماس هايد (٢٠) الذى امتدح محمداً بوصفه مجددا للدين الحقيقى لإبراهيم ، ومثل جورج سيل . الذى يقول :

---

(١٩) ريلاند (ت ١٧١٨ م) مستشرق هولندى كان أستاذ اللغات فى جامعة أوترشت بهولاندا ، أما جورج سيل (١٦٩٧ — ١٧٣٦) فهو مستشرق انجليزى ، وله ترجمة شهيرة لمعانى القرآن الكريم صدرت عام ١٧٣٤ م .

(٢٠) توماس هايد (١٦٣٦ — ١٧٠٣) مستشرق انجليزى ، كان أستاذا للعربية والعبرية فى أكسفورد .

ليس هناك شك فى أن الأمور التى يشتمل عليها القرآن من الحث على الأخلاق الطيبة والفضائل والدعوة — بصفة خاصة — الى التوحيد الحق ، تعد من الأشياء الرائعة التى يود المسيحى حقا أن يراعيها (٢١)•

٦ — فولتير :

وفى زمن معاصر للأديب الألمانى ليسنج عاش أديب فرنسى معروف هو فولتير (١٦٩٤ — ١٧٧٨) •

وقد دأب فولتير على الترويج للفكر اللادينى على المسرح بطرق ملتوية ، وفى أول مسرحياته (أوديب) عام ١٧١٨ كان يتظاهر بمهاجمة الكهان فى الوثنية ، وقد كان يعنى بذلك مهاجمة الكنيسة المسيحية فى حقيقة الأمر •

ولكنه لم يكتف بمهاجمة رجال الدين ، بل اتجه الى مهاجمة الأنبياء غير أنه لم يجرؤ على أن يختار نبيا من أنبياء العهد القديم أو الجديد ليكون هدفا لهجومه فاختار محمداً ﷺ ، وكتب عام ١٧٤١ م مسرحيته (التعصب أو محمد النبى) •

ولم يكن فولتير يقصد مهاجمة محمد بالذات ، بل كان يهاجم فى شخصه كل الأنبياء ولكنه رأى امعانا فى التعمية أن يجعل اهداء المسرحية للبابا ، وختم الاهداء بقوله :

« وبعد فليأذن لى صاحب القداسة أن أضع المسرحية ومؤلفها عند موطىء قدميه وأن ازداد جرأة فألتمس منه للمسرحية الرعاية ولمؤلفها البركة » •

وقد فهم البابا المقصد الخفى لفولتير ، ولذلك اقتصر فى رده عليه بالقول بأنه قرأ مسرحية (محمد) باهتمام •

---

(٢١) Pfannmueller, op. cit., P. 173/74

وقد مثلت المسرحية أولا فى مدينة (ليل) بفرنسا عام ١٧٤١ ، ثم مثلت فى باريس عام ١٧٤٢ • وقد احتج عليها السفير العثمانى لدى الحكومة الفرنسية ، وقد عقد مؤتمرا دعا اليه كتاب فرنسا الأحرار فأوقفت الحكومة تمثيلها بعد أن قدمت ثلاث حفلات فقط وظلت متوقفة بعد ذلك مدة تسعة أعوام (٢٢) •

ومن الغريب أن يلجأ فولتير الى التشهير بمحمد ﷺ فى هذه المسرحية جاعلا منه « منافقا عديم الحياء ودجالا ومستبدا تحركه النوازع الحسية ويدفعه التعطش للدماء •• الخ » وفولتير كان يعلم تمام العلم أن ذلك كله غير صحيح ولا يتفق مع الحقيقة التاريخية •

ولكن فولتير أراد أن يتخذ من محمد أداة حرب على الكنيسة ، وأن يحول دفة الحديث ضد المسيحية الكاثوليكية وضد التضليل الكهنوتى وضد الخرافات وضد الدين نفسه وما يرتبط به — فى زعمه — من تعصب — وذلك على طريقة :

« اياك أعنى واسمعى يا جارة » •

وبجانب هذه الصورة الظالمة نجد فولتير فى مقالة أخرى له عن الأخلاق (Essai sur Ies moeurs) يقدم لنا صورة مختلفة تماما يصف فيها محمدا بأنه ذلك « الرجل العظيم الذى جمع فى شخصه بين الفاتح والمشرع والواعظ والحاكم والذى قام بأعظم الأدوار التى يمكن أن يقوم بها إنسان على ظهر الأرض » •

من ذلك يتبين لنا مدى تناقض فولتير ، ويبدو أن رأيه الأخير فى محمد ﷺ هو الرأى الذى كان مقتنعا به فى حقيقة الأمر •

---

(٢٢) راجع الشرق والاسلام فى أدب جوته لعبد الرحمن صدقى ص ٢٢ وما بعدها (المكتبة الثقافية رقم ١٠) •

— « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لا ارتاب المبطلون » (٣٠) .

ويرى جوته أن القارىء الأجنبى عند قراءته للقرآن أول مرة قد يمله ، ولكنه يعود فينجذب اليه ، وفى النهاية يروعه ويلزمه الإكبار والتعظيم .

ويستشهد فى هذا الصدد بقوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » الى قوله تعالى : « وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » (٣١) .

وعلى النقيض من رأى النقاد الغربيين فى القرآن لا يرى جوته فى تكرار القرآن لتعاليمه ولما يشتمل عليه من البشير والنذير أى وجه من وجوه الطعن ، اذ أن الأمر لا يدور حول متعة أدبية فقط فهناك ما هو أسمى من ذلك ، فقد أرسل محمد ﷺ لاعلان الدعوة وتبليغ الشريعة وجمع الأمم حولها ، كما أن أهمية القصص القرآنى تكمن بالدرجة الأولى فى العظة والاعتبار والحكمة .

ويبدو جوته منصفا فى عرضه للإسلام وعادلا فى حكمه عليه ، وبعيدا عن التعصب البغيض الذى شهدته أوربا فى عصورها الوسطى .

وفى هذا المعنى يقول : « من حماقة الإنسان فى دنياه أن يتعصب كل منا لما يراه وإذا كان الإسلام معناه التسليم لله فاننا جميعا نحيا ونموت مسلمين » (٣٢) .

---

(٣٠) العنكبوت ٤٨ .
(٣١) البقرة من ٢ الى ٧ .
(٣٢) الشرق والاسلام فى أدب جوته ص ١٧ وما بعدها وص ٢٥ .

وفى « الديوان الشرقى الغربى » يجد القارىء بوضوح تأثر جوته بالقرآن فى روحه وعباراته .

وكان جوته قد عقد العزم على كتابة مسرحية عن محمد ، وشرع فى ذلك عام ١٧٧٣ حيث قام فى ذلك العام بنظم فاتحة الفصل الأول من هذه المسرحية وجعل عنوانها « مناجاة محمد » (٣٣) . ويصور جوته حوارا يدور بين محمد ﷺ وحليمة حيث راحت تبحث عنه فى البادية معبرة عن قلقها عليه ، فيهدىء محمد من روعها ويبين لها أنه لم يكن وحده ، فقد كان الله معه يؤنس وحدته ، ويخبرها بشق صدره الشريف .

ولكن حليمة تبدى شكها فى قصة شق الصدر ، وتسأل محمدا عن ربه وعما إذا كان يختلف عن هبل والعزى . فيبدد محمد شكوكها ويبين لها أن ربه ليس كمثله شىء وينتهى الحوار بابتهال محمد إلى ربه راجيا منه انقاذ البشر من ضلالهم ، فهم اليه راغبون والى وجهه الكريم متطلعون (٣٤) .

وقد ورد فى مذكرات جوته التى سماها « شعر وحقيقة » ما يفيد أنه نظم أشعارا غنائية عديدة لتأخذ مكانها فى المسرحية التى كان قد شرع فى كتابتها عن محمد .

ولكن الذى بقى من هذه الأشعار نشيد واحد كان قد نشره فى عام ١٧٧٣ فى شكل مقطعات يتناوب انشادها القائد الشجاع على رضى الله عنه وزوجه فاطمة تحية للنبى ﷺ .

وهذا النشيد تصوير رائع لتلك القوة التى فجرها الله على يد رسوله ووصف شعرى لفيض الإسلام وسرعة ذيوعه وانتشاره فى

---

(٣٣) المرجع السابق ص ٢٦ .
(٣٤) المرجع السابق ص ٢٧ وما بعدها .

جميع البقاع.(٣٥) وقد وضع جوته التخطيط النهائى لمشروع مسرحيته عن محمد فى خمسة فصول يصور فيها ظهور الدعوة فى جميع مراحل حياته عليه الصلاة والسلام ، بدءا من تأملاته فى غار حراء الى الجهر بدعوته، وما صادف فى سبيلها من معارضة ، ثم انتصاره على كفار مكة ومواصلة جهاده فى سبيل نشر الدعوة الى أن اختاره الى جواره .

ولكن المسرحية قد ظلت للأسف مجـرد مشروع لم يكتب له أن يكتمل ويتحول الى عمل أدبى يأخذ مكانه بين روائع جوته الأدبية .

وليس معنى ذلك أن اعجابه بالإسلام ونبيه قد انخفض أو توقف ، فالشواهد كثيرة ومتضافرة على أن اعجابه بالقرآن الكريم وبالإسلام قد ظل ملازما له حتى نهاية حياته .

ومما يذكر فى هذا الصدد دليلا على ذلك أن فرقة من الجنـود الألمان الذين اشتركوا مع نابليون فى حربه الأسبانية قد حملت معها عند عودتها الى وطنها صفحة من مصحف مخطوط عليها السورة الأخيرة من القرآن ، فتلقف جوته هذه الصفحة وعكف على محاكاة حـروفها كأنما تحمل إليه وهو يقوم بنسخها عبير الشرق الذى ظل عاشقا له رغم بعد الشقة ، ولم يهدأ لجوته بال حتى حصـل على ترجمة هذه الصـفحة بالألمانية من المستشرق الألمانى (Eichstadt)

وفى يناير من عام ١٨١٤ عبر امارة فايمار (Weimar) الألمانية — فى أعقاب الفرنسيين المنهزمين — أفواج من الجيوش الروسية ، وكان من بينها فرقة من فرسان البشكير وهم من رعايا روسيا التتار المسلمين .

---

(٣٥) Goethe Werke, I, P. 33, 458 (Insel Verlag)
وانظر أيضا ترجمة هذا النشيد الى العربية فى كتاب الشرق والاسلام فى أدب جوته ص ٣٠ — ٣٢

وقد استراح هؤلاء الفرسان بعض الوقت فى المدينة واتخـذوا من ركن فى المعهد البروتستانتى مسجدا للصلاة .

فـأتيح لأهل المدينة الفرصـة لمشاهدة المسـلمين وهم يؤدون صلاتهم — وقد كان ذلك حدثا له وقعه فى النفوس ودفع البعض — وفى مقدمتهم سيدات المدينة — الى التوافد على المكتبة لاسـتعارة كتب عن الإسلام حتى يكونوا فى المعرفة على مستوى هذا الحدث .

وقد شهد جوته أيضا صلاة المسلمين وسمعهم يرتلون القرآن ، ورأى إمامهم واستقبل أميرهم فى مسرح فايمار .

ويذكر جوته باعتزاز أنهم اختصوه من رعايتهم له بقوس وسهام كان يعلقها فوق موقده فى البيت تذكارا عزيزا باقيا (٣٦) .

وكان لجوته أيضا اعجاب بالشـعر العربى القديم — فقد قـرأ المعلقات فى ترجمة انجليزية وأعجب بها إعجابا عظيما .

وله فى ذلك أقوال عـديدة لا داعى لتفصيل القول فيهـا الآن ، ونكتفى هنا بابراز اعجابه الذى لا حد له بواحد من الشعراء المسلمين ، ألا وهو الشاعر الفارسى حافظ الشيرازى.فقد حصل جوته فى عام ١٨١٤ على ترجمة المانية لديوان هذا الشاعر ، وكان المستشرق النمساوى فون هامر برجشتال (١٧٧٤ — ١٨٥٦) هو الذى قام باعداد هذه الترجمة، فانكب جوته على قراءة هذا الديوان باهتمام واضح .

وقد كانت هذه اللقاءات الفكرية — بحافظ الشيرازى من خـلال ديوانه بصفة خاصة وبالشرق بصفة عامة — هى الدوافع وراء قيام جوته

---

(٣٦) المرجع السابق ص ٣٣ — ٣٥ .

بتأليف ديوانه الشهير (الديوان الشرقى الغربى) تعبيرا عن التقاء الشرق بالغرب ، وفى هذا الديوان يقول :

« لله المشرق ولله المغرب وفى راحتيه الشمال والجنوب جميعا » (٣٧)
وقد كتب جوته على دفة الكتاب اليسرى تحية شعرية كتبها بالألمانية ولها ترجمة بالعربية على دفة الكتاب اليمنى .

وقد أعد هذه الترجمة المستشرق الفرنسى الشهير سلفستر دى ساسى ، وهذا نصها : « يا أيها الكتاب سر الى سيدنا الأعز فسلم عليه بهذه الورقة التى هى أول الكتاب وآخره » .

يعنى أوله فى الشرق وآخره فى الغرب . (٣٨)

وقد تأثر جوته بالشاعر الفارسى المسلم ، وأعجب بشعره اعجابا منقطع النظير — وقد استهل الكتاب الذى خصصه لحافظ الشيرازى فى ديوانه المشار اليه (يحتوى الديوان على اثنى عشر كتابا) بقوله :

« هلم نسم اللفظة العروس ونسم المعنى العريس — لقد شهد هذا الزفاف من قرأ لحافظ شعره » . (٣٩)

ونكتفى هنا بالإشارة الى مثال واحد من كتاب حافظ حيث صاغ الشاعر جوته هذا الحوار بينه وبين حافظ :

الشاعر (جوته) : قل يا محمد شمس الدين ! ما بال قومك الأكرمين يدعونك حافظا ؟ .

---

(٣٧) Goethe op. cit., P. 239
(٣٨) الشرق والاسلام فى أدب جوته ص ١٠٤ .
(٣٩) المرجع السابق ص ١٠٩/١١٠ . أنظر الأصل الألمانى فى :
Goethe , op. cit., P. 249

حافظ : أحييك تحية التعظيم ، وجوابا على سؤالك أقول : ان ذلك لحفظى القرآن الكريم عن ظهر قلب ، واستيعابى ذخره المصون عن التبديل والتحريف فى خزائن صدرى ، ولقد حمانى كل مكروه ، كما حمى جميع الذين يعلمون علم اليقين ما أنزل على النبى من القول المبين .

ذلك هو السر فى تسميتى حافظا . (٤٠)

وفى أحد مقطوعاته يعبر جوته عن أمله فى دخول الجنة جزاء جهاده (وقد حاول اظهار القراء على محاسن الإسلام وما جاء به من الحق) .

وعلى باب الجنة يصور الشاعر هذا الحوار الذى يدور بينه وبين الحورية الواقفة على باب الجنة ملتمسا الرخصة بدخولها .

الحورية : اليوم أنا الموكلة بباب النعيم ، ولا أدرى ما العمل وأنت عندى ظنين . أتراك حقا من معشر المسلمين ؟ وهل استحققت دخول الجنة على جهادك ؟ هل أنت من المجاهدين ؟ فاكشف اذن عن جراحك لتشهد بما قدمت من المآثر ان كنت من الصادقين ، فانى لأحب لك الدخول .

الشاعر (جوته) : فيم هذه المراسم كلها ؟ دعينى أدخل الجنة على كل حال . لقد عشت رجلا ، أى أننى كنت من المجاهدين . ألا حددى طرفك وأمعنى النظر فى فؤادى ، اشهدى ما به من جراح الحياة النكراء .. الى أن يقول :

لقد عملت مع صفوة العالمين ، وجاهدت مع خيرة المجاهدين وتألق اسمى بحروف مشبوبة الأنوار فى قلوب الصالحين الأبرار . (٤١) .

---

(٤٠) المرجع السابق .
(٤١) المرجع السابق ١٣١/١٣٢ .
Goethe , op. cit. P. 333

وعلى الرغم من أن جوته قد قرأ القرآن فى ترجمة لاتينية للأب اليسوعى الايطالى مارانتشى (٤٢) ، تلك الترجمة التى كانت مصحوبة بهوامش توضيحية من جانب مارانتشى ونقض مزعوم لكل فقرة قرآنية على حدة ، وعلى الرغم من أن هدف مارانتشى فى كل كتاباته كان هو محاولة البرهنة على بطلان الإسلام واثبات حقيقة الديانة المسيحية (٤٣) — على الرغم من ذلك كله فان عقلية جوته المتحررة لم تتأثر ولم تقتنع بكل الافتراءات والمزاعم التى خطها قلم مارانتشى وأمثاله من المستشرقين المغرضين أو المبشرين الحاقدين .

ومبلغ علمى أنه لا يوجد هناك أديب أوربى فى السابق أو اللاحق تحمس للإسلام وعرض مزاياه لقرائه مثلما فعل هذا الأديب الألمانى جوته .

٨ — هيجل :

وفى زمن معاصر للأديب جوته عاش أيضا الفيلسوف الألمانى هيجل (Hegel) (١٧٧٠ — ١٨٣١) الذى طبقت شهرته الآفاق .

وقد عقد هيجل فصلا عن الإسلام فى كتابه الشهير (فلسفة التاريخ) (٤٤) ويسمى الإسلام بالمذهب المحمدى Mohammedanismus كما هى عادة الكثيرين من كتاب الغرب حتى اليوم . ولم يرد فى هذا الفصل كله تعبير (الإسلام) إلا مرة واحدة فقط فى نهاية الفصل .

ويهمنا هنا أن نلقى نظرة على فهم هيجل للإسلام من واقع ما عرضه علينا فى كتابه السالف الذكر .

---

(٤٢) صدرت الترجمة فى العقد الاخير من القرن التاسع عشر .

(٤٣) Pfannmueller, op. cit. P. 214

(٤٤) Hegel : Philosophie der Geschichte ,P. 485 - 91 (Reclam , Stuttgart 1961

الإسلام — فى نظره — هو ثورة الشرق — وتتمثل الغاية الوحيدة والنهائية للمذهب المحمدى فى عبادة الإله الواحد — وقد تم فى الإسلام تحرير وحدة الألوهية من صفة الجزئية التى كانت لاصقة بعبادة يهوفا (يهوه) .

فقد كان يهوفا يعرف بأنه إله الشعب اليهودى فقط — إله إبراهيم واسحق ويعقوب ، وقد أبرم هذا الاله عهدا مع اليهود فقط وأوحى الى هذا الشعب وحده . ولكن الإسلام قد قام بمحو جزئية هذه العلاقة .

ويختلف الإسلام عن الاستغراق الهندى وعن الرهبانية والفناء فى المطلق . وموضوع المذهب المحمدى عقلى خالص ، الأمر الذى لا يقبل بأى حال صورة أو تصورا لله على أى نحو من التصورات الحسية ، كما أنه على الرغم من أن محمدا نبى إلا انه إنسان لا يرتفع فوق الضعف الإنسانى (٤٥) .

وتقضى أصول المذهب المحمدى — كما يقول هيجل — بأنه لا يمكن أن يكون هناك فى الحقيقة الواقعة شىء ثابت ، فكل شى صائر ومتحرك ، ومن أجل ذلك تبقى عبادة الإله الواحد هى الرباط الوحيد الذى ينبغى أن يربط كل شىء (٤٦) وهنا تختفى الحواجز وتزول كل الفروق القومية والطبقية ، فلا تكون هناك قيمة للنسب أو القبيلة أو الحق السياسى

---

(٤٥) صحيح أن محمدا ﷺ انسان يجوز عليه ما يجوز على البشر ، ولكنه كان كاملا فى أخلاقه وفى سلوكه طول حياته ، مرتفعا فوق كل ضعف انسانى . وقد عرف قبل البعثة لدى أهل مكة بأنه (الصادق الامين) وامتدحه الله فى القرآن الكريم بقوله (وانك لعلى خلق عظيم) . وليس بعد شهادة الله له مكان لزعم الزاعمين وأقوال المتخرصين .

(٤٦) فى ذلك اشارة على ما يبدو الى مضمون الآيتين الكريمتين : « لا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه » (القصص : ٨٨) و « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » — (الرحمن : ٢٦) .

الموروث أو المملوك . وقيمة الإنسان تتمثل فى كونه مؤمنا فحسب (٤٧).

وعقائد الإسلام البسيطة تتمثل فى الإيمان بالله الواحد وعبادته والصيام وايتاء الزكاة والتغلب على الإحساس البدنى بالخصوصية الفردية . أما الكسب الأعظم فهو الاستشهاد فى سبيل العقيدة ، فالجنة مثوى الشهداء . ثم يتحدث هيجل عن انتشار الإسلام بسرعة فائقة ويقول : إن الدخول فى الإسلام يعنى حصول الفرد على كل الحقوق التى يتمتع بها المسلمون .

أما من كان يرفض الدخول فى الإسلام من أهل تلك البلاد المفتوحة فقد كان نصيبه القتل فى العصر الأول ، ولكن العرب عاملوا المهزومين فيما بعد معاملة أكثر ليونه ، فمن أراد منهم عدم الدخول فى الإسلام وجب عليه أداء الجزية ، وتحتم على المدن التى استسلمت دون حرب أن تؤدى للمنتصر عشر كل أملاكها أما المدن التى فتحت عنوة فكان عليها أن تؤدى الخمس . (٤٨)

---

(٤٧) لعله يشير هنا الى ما ورد فى الآية الكريمة : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (الحجرات : ١٣) .

(٤٨) ورد عن النبى ﷺ فيما رواه مسلم وغيره انه كان اذا امر اميرا على جيش أو سرية أوصاه بدعوة عدوه الى ثلاث خصال : « فاذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاث خصال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم » وهذه الخصال الثلاث هى : الاسلام والانضمام الى المهاجرين فان ابوا الاسلام فيطلب منهم أداء الجزية . ومن ذلك يتضح عدم صحة ما يقوله هيجل من أن القتل كان نصيب من يرفض الدخول فى الاسلام فى العصر الأول ، فالموافقة على أداء الجزية كانت كافية لامتناع المسلمين عن القتال . والاصل فى تشريع الجزية قوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون « التوبة ٢٩ . » وقد ذهب الشافعى الى حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون « التوبة ٢٩ . » وقد ذهب الشافعى الى تفسير قوله تعالى « وهم صاغرون » بأن عليهم أداء الجزية وفق حكم الاسلام وهو الحكم الذى يخضعون له . والجزية ضريبة تؤخذ على الرؤس من الذكور

ويتحدث هيجل بعد ذلك عما يسميه حماس المحمديين لسيادة العبادة المجردة ، ويعتبر هذا الحماس تعصبا ، لأنه حماس لفكرة مجردة تنفى كل ما هو قائم (٤٩) ومع أن ماهية هذا التعصب هى التخريب والتدمير لكل ما هو محدد أو معين فقد كان التعصب المحمدى — كما يقول — قادرا فى الوقت نفسه على كل السمو ، وهو سمو متحرر من كل الاهتمامات الصغيرة ومرتبط بكل فضائل السماحة والشجاعة .

ولكن هيجل كان يرى أن القاعدة فى الاسلام كانت هى الدين والرعب مثلما كان المبدأ عند روبسبير هو الحرية والرعب (٥٠) .

الأحرار البالغين القادرين الأصحاء الجسم ولا تجب على النساء والصبيان والشيوخ . أما الخراج فهو ضريبة تؤدى عن الأرض . (انظر مزيدا من التفصيل عن الجزية والخراج ومقادير كل منهما فى المراجع التالية : أ — كتاب الخراج للقاضى أبى يوسف ص ٢٥ وما بعدها وص ١٣١ وما بعدها — المطبعة السلفية بالقاهرة ١٣٩٦ هـ . ب — الأحكام السلطانية للماوردى فى البابين الثانى عشر والثالث عشر ص ١٢٦ وما بعدها و ١٤٢ وما بعدها — مكتبة الحلبى ١٩٧٣ . جـ — فقه السنة للشيخ سيد سابق جـ ٢ ص ٦٦٦ وما بعدها — دار الكتاب العربى بيروت ١٩٧٧) .

(٤٩) الحماس هنا للفكرة الدينية التى تقوم على الايمان بالله وحده والجهاد فى سبيله لم يكن حماسا معتديا أو تعصبا بغيضا . فالله سبحانه وتعالى لم يأمر المسلمين بالقتال الا لرد العدوان . ويقرر القرآن الكريم ذلك فى صراحة ووضوح حين يقول : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » — البقرة ١٩٠ — .

(٥٠) روبسبير (١٧٥٨ — ١٧٩٤) ثائر فرنسى ، ساند حكم الارهاب ، وأشاع الرعب والفظائع ، وشرع قانون المشبوهين الذى قضى على كثير من خصومه . وفى النهاية حوكم وشرب من نفس الكأس التى أذاقها لخصومه .

وانه لامر غريب حقا أن يشبه هيجل المبدأ الاسلامى بمبدأ روبسبير ، مع انه ليس هناك أى وجه من وجوه الشبه بينهما على الاطلاق .

فالاسلام لم يكن ثورة بالمفهوم البشرى ولكنه دعوة الى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة لما فيه خير البشر فى دينهم ودنياهم ، جاء ليشيع الأمن والطمأنينة فى نفوس الناس ، وينزع منها الأنانية البغيضة ويسمو بها الى أعلى الدرجات

ثم يتحدث هيجل عن الممالك الكثيرة التى أنشاها الاسلام ، ويشير الى أن الأسر الحاكمة فى ظل الاسلام لم يكن بينها رباط قوى يجعل منها وحدة عضوية ثابتة ، بل كان الأمر هنا مثل بناء أقيم فوق الرمال ليس له ثبات .

وقد انعكس ذلك على سلوك المسلم الذى كان يتحرك وسط متغيرات الحظ الهوجاء بروح اللامبالاة والسلبية (٥١) .

= وقد كان تأثير هذه الدعوة عظيما — رغم العقبات التى وضعها كفار مكة أمامها — فانتشر بسرعة فائقة مما أقض مضاجع الظالمين والمستبدين فى كل مكان والقى فى قلوبهم الرعب دون أن يكون هناك سيف مصلت على رقابهم .

ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه البخارى ومسلم : « نصرت بالرعب مسيرة شهر » أى نصرنى الله بالقاء الخوف فى قلوب أعدائى من مسيرة شهر بينى وبينهم .

وقد جاء مفهوم الرعب فى القرآن الكريم فى اربعة مواضع تشير الى ان الله سبحانه وتعالى هو الذى يلقى أو يقذف الرعب فى قلوب الكافرين .

(أنظر آل عمران ١٥١ ، الأنفال ١٢ ، الأحزاب ٢٦ ، الحشر ٥٩) .

(٥١) يشيع على لسان كثير من الكتاب الغربيين الزعم بأن المسلم انسان اتكالى كسول يميل الى السلبية واللامبالاة ، ويترك مصيره معلقا فى يد قوى مجهولة ، ويعدون ذلك من تأثير الاسلام . وهنا يخلط هؤلاء الكتاب — عن قصد أو عن غير قصد — بين تعاليم الاسلام وبين الواقع الحضارى المتخلف الذى تعيشه الأمة الاسلامية منذ فترة ليست بالقصيرة .

والواقع أن التخلف الذى يعيشه المسلمون اليوم يعد — كما يقول مالك بن نبى بحق — عقوبة مستحقة من الاسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم به كما يظن بعض السذج .

فالاسلام يدفع المسلمين دفعا الى العمل والبناء . ولن يصلح الله أحوالهم ويغير من أوضاعهم الا اذا جاءت المبادرة من أنفسهم معبرة عن ايجابيتهم وفاعليتهم كما يقرر ذلك المبدأ القرآنى الثابت (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

ولم يرد النبى ﷺ أن تقف ايجابية المسلم عند حد . أليس هو القائل: « ان قامت الساعة وبيد أحدكم فسيله فان استطاع الا يقوم حتى يغرسها فليفعل » ؟ =

ويعقد هيجل مقارنة بين الفرد فى ظل الاسلام والفرد فى التصور الاوربى ويرى أن الفرد فى ظل الاسلام أشد قسوة ودهاء وأكثر شجاعة وسماحة من نظيره الأوربى ، وحيث يكون هناك شعور بالمحبة لدى الفرد المسلم فانه يكون شعورا غامرا لا يبالى بأى شىء آخر ، فالحاكم الذى يحب عبده أو جاريته نجده يعمد الى تفخيم موضوع حبه ، ويضع تحت قدمى من يحب كل الأبهة والقوة والشرف وينسى الصولجان والتاج ، أما اذا اختفى هذا الحب فانه لا يتوانى عن القيام بالتضحية بمن كان يحب دون أدنى مراعاة لأى اعتبار آخر .

وينتقل هيجل الى الحديث عن انتشار العلوم والفنون فى العالم الاسلامى بسرعة فائقة مثلما تمت الفتوحات الاسلامية أيضا بسرعة فائقة ، ولكنه يقول :

ان المسلمين كانوا فى بادىء الأمر يدمرون كل شىء يتعلق بالفن والعلم ، فقد قيل إن عمر بن الخطاب قد خرب مكتبة الاسكندرية الرائعة قائلا :

ان هذه الكتب اما أن تشتمل على ما هو موجود فى القرآن واما أن يكون ما تشتمل عليه شيئا آخر ، وفى كلتا الحالتين لا فائدة منها (٥٢) .

ويشير هيجل الى الازدهار فى الدولة الاسلامية وبخاصة فى عهد المنصور وهارون الرشد ويقول : ان الأبهة التى ازدانت بها الدولة حينذاك لم تكن مجرد أبهة فى المظاهر المادية ، فقد كانت القصور تزدان بمجالس الشعر والعلوم المختلفة .

= (راجع مسند احمد بن حنبل ج ٣ ص ١٩١ (الكتب الستة طبعة اسطنبول مجلد ٢٢) .

فأين السلبية المزعومة والاتكالية الموهومة فى تعاليم الاسلام المفترى عليها ؟

(٥٢) لقد أثبت التحقيق العلمى أن مكتبة الاسكندرية قد أحرقت قبل ظهور الاسلام .

ثم يتحدث هيجل عن المساواة البسيطة فى الاسلام بين الخليفة وأقل أفراد الرعية نساء كانوا أم رجالا • (٥٣) •

وينتقل هيجل بعد ذلك الى الحديث عن انهيار الدولة العربية واستيلاء العبيد والشعوب الغازية من السلاجقة والمغوليين على مقاليد الأمور الى أن انتهى الأمر بنجاح العثمانيين فى اقامة حكم ثابت معتمدين فى ذلك على الأنكشارية •

ويقول : انه بعد أن خفت حدة التعصب لدى المسلمين لم يعد هناك فى الأفئدة مبدأ أخلاقى ثابت •

ويثنى هيجل على الشجاعة الأوربية فى حربها ضد المسلمين حيث بلغت هذه الشجاعة — فى زعمه — صورة مثالية فى الفروسية الشريفة ، ويعترف هيجل بأن الغرب قد أخذ من العرب العلوم والمعارف وبوجه خاص العلوم والمعارف الفلسفية ، كما أن الشرق قد أشعل لدى الجرمانيين جذوة الشعر الراقى والخيال الحر ، ويشير هيجل فى هذا الصدد الى جوته الذى تأثر بالشرق وأتى فى ديوانه — كما يقول هيجل — بعقد من اللؤلؤ فاق كل شىء بما فيه من العمق وسعة الخيال •

اما الشرق نفسه فقد غرق — كما يقول هيجل — فى فساد وفجور عظيمين بعد أن اختفت الحماسة من القلوب شيئا فشيئا ، وبدأت أقبح العواطف تسود وتنتشر فى كل مكان ، ويعلل هيجل ذلك بالقول بأنه نظرا الى أن المتعة الحسية كانت تمثل فى التعاليم الاسلامية الأولى أساس الثواب

---

(٥٣) يقول الرسول ﷺ فى ذلك : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم » •

الذى ينتظر المؤمنين فى الجنة (٥٤) فقد حلت الآن محل التعصب بعد أن اختفى الحماس من القلوب •

ويختم هيجل هذا الفصل الذى خصصه للحديث عن الاسلام بقوله : لقد تراجع الاسلام الى آسيا وافريقيا وسمح له بالبقاء فى ركن صغير من أوربا وذلك بسبب غيرة القوى المسيحية • وقد اختفى الاسلام منذ زمن طويل من أرض تاريخ العالم — أى لم يعد له تأثير فى توجيه أحداث التاريخ — وارتد الى الاسترخاء والسكون الشرقى • (٥٥) •

مما تقدم يتضح لنا أن كلام هيجل عن الاسلام يشتمل على حق مختلط بالباطل ، وعلى معلومات مشوهة بجوار الحقائق الثابتة •

ومن الواضح أن هيجل لم تكن لديه تلك الاحاطة الواسعة بالاسلام التى وجدناها لدى ابن عصره وابن وطنه جوته• فقد اكتفى هيجل باستقاء معلوماته عن الاسلام من المبشرين والمستشرقين وليس هناك ما يدل على أنه قد لجأ الى دراسة الاسلام فى مصادره الأصلية •

وكلام هيجل بوصفه فيلسوفا عالميا له شهرة عظيمة يقرؤه المثقفون وطلاب الفلسفة فى معظم بلاد العالم •

---

(٥٤) لم يكتف القرآن الكريم بأن يعدد ما فى الجنة من متع أخلاقية ومادية ، بل أثبت أن بينها تدرجا فى القيم يجعل للأمور الروحية فيها أعلى الدرجات • وقد علمنا القرآن الكريم أن هناك من بين جميع ألوان النعيم المختلفة فى الجنة نعيما واحدا لا يمكن تقدير قيمته وهو رضا الله تبارك وتعالى ؛ وهذا يقرره القرآن الكريم فى قوله تعالى : « ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » — التوبة ٧٢ (راجع المزيد من التفصيل حول هذا الموضوع فى كتاب : دستور الأخلاق فى القرآن للدكتور محمد عبد الله دراز من ص — ٣٧٠ حتى ص ٣٨٧ • مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧٣) •

(٥٥) يتضح هنا أيضا خلط هيجل بين الاسلام كدين وتعاليم وبين الواقع الحضارى المتخلف الذى تعيشه الأمة الاسلامية •

وهذا الواقع يمثل مرحلة عارضة فى تاريخ المسلمين • وقد سبق أن نبهنا فى هامش سابق الى خطأ مثل هذا الخلط فى تصور الكتاب الغربيين •

وكتابه فلسفة التاريخ بالذات يقرؤه أيضا بالاضافة الى ذلك المشتغلون بالتاريخ علمـاء كانوا أم دارسين كما يقرؤه طـلاب الثقافة العامة وعشاق المعـرفة .

ومن هنا تأتى أهمية وخطورة أية معلومات خاطئة عن الاسلام يشتمل عليهـا هذا الكتاب وبخاصة حـكم هيجل فى نهاية كلامـه عن الاسـلام بأنه لم يعـد له تأثير فى توجيه أحداث التاريخ بعد أن ركن الى الاسترخاء والسكون الشرقى .

٩ ــ تولســتوى :

أما الأديب الروسى الشهير تولستوى (٥٦) فقد أقبل على دراسـة الأديان فى نهاية العقد الخامس من عمره بعد بعد أن شغلت ذهنه وأقضت مضجعه قضايا مصيرية تتمثل فى تساؤلات عن الموت ومعنى الحياة .

وبعد تأمل عميق انتهى تولستوى الى الاقتناع بأن الدين هو الشىء الوحيد الذى يستطيع أن يقدم للمؤمنين به الاجابة عن مثـل هـذه التسـاؤلات .

فالايمان هو الذى يعطى المؤمن أسباب القوة ويكشـف له عن المعنى الحقيقى للحياة . وقد درس تولستوى الاسلام ، كما درس أيضا أديان الشرق الأخرى ، وقد اطلع على ترجمة للقـرآن الكريم وتعرف على سيرة الرسـول ﷺ وعلى أحاديثه واجتذبته بشدة تلك القيم التى اشتمل عليها القرآن من دعـوة الى السماحة والتواضـع وحب العمل وصلة الرحم وتحريم السرقة وشرب الخمر والقتل .

---

(٥٦) تولستوى (ليونيكولا بيفتش) : ١٨٢٨ ــ ١٩١٠ . يعد أشهر أدباء روسيا فى القرن التاسـع عشر واوائل القرن العشرين ويحظى بشـهرة عالمية ــ ومن أشهر رواياته : الحرب والسلام والبعث وآنا كارنينا .

واختار تولستوى من القرآن الكريم والأحاديث النبوية هذه المعانى والقيم الشريفة واستشهد بها على صحة أفكاره التى كان يدعو اليها فى كتبه الأخـيرة .

وقد كتب تولستوى مقدمـة لمقالة كتبتها شقيقته عن نبى الاسلام محمد ﷺ ، وتعد هذه المقدمة بمثابة مدخل مختصر للتعرف على مكانة الاسـلام ، ولكن هذه المقدمـة قد بترت وحذفت منها بعض الأجزاء عن طريق الرقابة ، ولا يعلم أحـد حتى اليوم أين ذهبت المقدمـة الكاملة .

وهناك كتيب آخر أخرجه تولستوى بعنوان (أحاديث مأثـورة عن محمد) . وقد اختار تولستوى هذه الأحاديث بنفسه وأشرف على ترجمتها من كتاب صدر فى الهند بالانجليزية لمؤلـف مسلم .

وقد راجع تولستوى الترجمة وقدم لها ، وأشـار الى أنه قد اختار هذه الأقوال باعتبارها تمثل أكثر الأقوال التى تشتمل على حقائق عامـة لكل الأديـان .

ويتناول تولستوى فى مقدمته لهذا الكتاب أحوال شبه الجـزيرة العربية وظروف مولـد الرسول ﷺ وطفولته وعقيدة التوحيـد والثواب والعقاب وطاعة الله والقيم التى تدعوا الى كل الفضائل وتنهى عن الرذائل، ويشير الى ما لاقـاه الرسول وصحابته من معاناة فى سبيل نشر الدعـوة، ويصف المسلمين بالتواضع والزهـد وحب العمل والبساطة وغير ذلك من صفات جليـلة (٥٧) .

التـــاريخ والحضـــارة :

بالاضافة تلك التصورات الأدبيـة والفلسفية الغربية حـول الاسـلام والتى تعرفنا على طرف منها ــ نـود أن نشير فى نهاية هـذا

---

(٥٧) راجع : د.مكرم الغمرى فى مقال لها بعنوان : (الايمان والاسلام فى فكر تولستوى) جريدة الاهرام فى ١٩٨٧/٤/١٧ .

البحث الى مجال آخر غنى بالكتابات عن الاسلام ، ولم ندخله فى الاعتبار بصفة أساسية لأنه يحتاج وحده الى بحث مستقل ، ونعنى بذلك مجال كتب التاريخ والحضارة فى أوربا وأمريكا .

فالمؤرخون المعنيون بكتابة التاريخ العالمى وتاريخ الحضارات قد تعرضوا فى مؤلفاتهم للاسلام والحضارة الاسلامية من أمثال توينبى فى انجلترا واشبنجلر فى المانيا وغيرهم من قدامى ومحدثين .

ونشير هنا الى بعض الامثلة السريعة مدخرين التفصيل فى ذلك الى بحث آخر ان شاء الله :

أولا : كتاب شجرة الحضارة :

صدر هذا الكتاب فى نيويورك عام ١٩٥٥ من تأليف رالف لنتون Ralph Linton وهو أستاذ فى الدراسات الانثربولوجية بجامعة ييل ، وقد قام الدكتور أحمد فخرى بترجمة هذا الكتاب الى اللغة العربية فى ثلاثة مجلدات .

وقد أحسن المترجم صنعا عندما عرض القسم الخاص بالاسلام على أحد علماء الأزهر وهو المرحوم الشيخ محمد المدنى الذى قام بدوره بالتعليق على ما ورد فى الكتاب من معلومات خاطئة عن الاسلام .

وقد نشرت تعليقات الشيخ المدنى مع الترجمة العربية .

ولكن المترجم أخطأ حين تجاهل عمدا ترجمة بعض العبارات التى وردت فى كتاب المؤلف معتذرا عن ذلك بقوله : « وقد اضطررت فى حالتين فقط الى ترك بعض جمل فى الكتاب لخطأ ما ورد فيها .. وربما كان العيب الرئيسى هو خلط كاتبه كمئات من أمثاله من الكتاب الغربيين بين الدين الاسلامى وبين عادات بعض الناس من المسلمين المتأخرين فى حضارتهم ، والذين يأتون كثيرا من الأعمال التى لا يرضى عنها الاسلام

الصحيح . » (٥٨) .

والمفروض — وفاء بحق الأمانة العلمية على الأقل — أن يترجم المترجم كل شىء ثم يقوم بتصحيح الخطأ ، أما أن يتجاهل الخطأ بترك ترجمته فهذا أمر لا يخدم الاسلام فى شىء ، بل يسىء إليه ويترك المعلومات الخاطئة دون تصحيح .

واخفاؤها عن المسلمين أمر ليس له ما يبرره — رغم حسن النية — كما هو الشأن أيضا مع مترجم الكوميديا الالهية — كما سبق أن أشرنا الى ذلك .

ولكن الأمر الذى أود أن أنبه اليه أيضا هو ما ذكره المؤلف بعد أن تحدث عن الانقسامات السياسية فى الإسلام ، فقد ختم كلامه عن الاسلام بقوله :

« وهكذا نرى أن وراء هذه الانقسامات السياسية فى الاسلام توجد نواة قوية من المعرفة العامة والتفاهم العام بين جميع المسلمين . ويسمو الاسلام فوق الحدود السياسية الدولية ، وهى نقطة هامة يجب أن توضع موضع الاعتبار عند محاولة التنبؤ بما عساه أن يحدث من رد فعل فى العالم الاسلامى عند حدوث أى أزمة عالمية (٥٩) »

ان الغرب لا يزال يضع خططه بناء على هذه المقولة أو الحقيقة ، ويقوم برصد الحركات الاسلامية فى كل مكان فى العالم الاسلامى بغرض حصارها — ولا تزال الوفود الاعلامية الغربية تجوب العالم الاسلامى شرقا وغربا ، وبخاصة بعد ظهور بوادر الصحوة الاسلامية الجديدة لرصد

---

(٥٨) انظر ص ٣٣٩ من المجلد الثانى من كتاب شجرة الحضارة — مكتبة الأنجلو المصرية .

(٥٩) المرجع السابق ص ٣٥٨ .

التحركات الاسلامية حتى تكون خطط حصارها والقضاء عليها مبنية على أسس مدروسة .

ثانيا : كتاب : قصة الحضارة :

لقد اشتهر هذا الكتاب الذى ألفه ول ديورانت على نطاق واسع فى الشرق والغرب وقد خصص المؤلف الجزء الثانى من المجلد الرابع من كتابه للحديث عن الاسلام وحضارته وتاريخه وعلومه ، وجاءت ترجمة هذا الجزء فى الترجمة العربية التى قام بها محمد بدران فى الجزء الثالث عشر بعنوان « عصر الإيمان » فى حوالى أربعمائة صفحة (٦٠) .

ويقول المترجم : « ان المؤلف قد أنصف الحضارة الإسلامية فشاد بفضلها وأوضح ما كان لها من أثر خالد فى حضارة أوربا والعالم أجمع وما يدين به العالم الحديث لهذه الحضارة » .

وقد علق المرحوم الدكتور محمد يوسف موسى وكذلك المترجم على ما ورد فى الكتاب من أخطاء من جانب المؤلف أو سوء فهم عند حديثه عن الدين الاسلامى أو عن القرآن أو عن محمد ﷺ .

ثالثا : كتاب تاريخ الحضارات العام :

صدر هذا الكتاب فى فرنسا بإشراف موريس كروزيه ، ويقع فى سبع مجلدات (٦١) وقد جاء الحديث فيه عن الاسلام وتاريخه فى عدد من فصول المجلد الثالث المخصص للقرون الوسطى والذى نقله الى العربية يوسف أسعد داغر وفريد داغر وقد خلت هذه الترجمة من أية تعليقات .

---

(٦٠) بلغ عدد الأجزاء التى ظهرت فى الترجمة العربية ٣١ جزءا .

(٦١) ظهرت الطبعة الأولى من الترجمة العربية عام ١٩٦٥ فى منشورات عويدات فى بيروت .

رابعا : موجز تاريخ العالم :

قام بتأليفه ويلز وترجمه عبد العزيز توفيق جاويد ونشر بالعربية عام ١٩٥٨ ويشتمل على بعض فصول قصيرة عن الاسلام وتاريخه .

كلمة ختامية :

تلك كانت جولة سريعة بين نماذج مختلفة من مجالات الأدب والفلسفة وبعض أمثلة من مجال تاريخ الحضارات فى الغرب ، ويلاحظ المرء أن هذه التصورات الغربية للاسلام تتباين أحيانا مع بعضها تباينا يصل فى بعض الأحيان الى حد التناقض .

ولا يجوز أن يقف المسلمون من التراث الغربى حول الاسلام موقف اللامبالاة فهذه التصورات الغربية للاسلام والتى تغذى عقلية الأوربى وتصوغ تفكيره — تقتضى منا أن نأخذها مأخذ الجد بتشجيع الايجابى منها وتتبع ما تشتمل عليه من أخطاء وتصحيحها ونشر ذلك التصحيح على نطاق واسع باللغات ذاتها التى انتشرت فيها هذه الأفكار .

ومن أجل ذلك نرى أن هناك ضرورة ملحة لانشاء مركز أو مراكز لبحوث الدراسات الاستشراقية وغيرها من دراسات غربية حول الاسلام ، وذلك على مستوى العالم الاسلامى على أن تتولى هذه المراكز مواجهة الكم الهائل من الدارسات الغربية حول الاسلام ببحوث تصحيحية من ناحية وبحوث إسلامية مبتكرة من ناحية أخرى .

فمن الأمور الغريبة حقا أن يكون هناك فى أوربا وأمريكا أكثر من مائة معهد للاستشراق تهتم بتراثنا وعقيدتنا وتاريخنا كله ، ولا يوجد فى العالم الاسلامى كله معهد واحد أو مركز علمى واحد يتكفل بدراسة ما يكتب عنا ، مع أن انتاج المستشرقين وحدهم عن الشرق بدءا من القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين قد بلغ ستين ألف كتاب ، ويضاف

الى ذلك ما يجده المرء متناثرا فى كتابات الأدباء والفلاسفة وعلماء التاريخ والحضارة والاجتماع والكتب المدرسية فى أوربا وأمريكا .

فالقوم جادون ونحن غير مكترثين. ويخيل إلى البعض منا من خلال بعض المظاهر السلوكية السلبية فى الغرب أنها شعوب لاهية عابثة — والحق أن القوم هناك قد عرفوا تماما الحد الفاصل بين الجد واللهو . ونحن نخلط بينهما دائما ، كما أننا دائما رافضون ساخطون نكتفى بمواقف الاستنكار والشجب ، بمعنى أننا عاجزون عن القيام بعمل إيجابى ومذنبون فى حق أنفسنا ودينا ومقدساتنا .

ولا أريد أن أكرر هنا المقترحات التى ذكرتها فى كتابى عن « الاستشراق » لمواجهة الحركة الاستشراقية (٦٢) ولا ما طرحته من مقترحات فى المؤتمر الأخير لرابطة الجامعات الإسلامية (٦٣) بشأن دور مؤسسات الدعوة حيال الغزو الفكرى (٦٤) فما أكثر المقترحات وما أكثر التوصيات والقرارات دون أن تجد أى منها طريقها للتنفيذ .

فذاكرتنا قد ضعفت الى الحد الذى لم تعد فيه قادرة على تذكر شىء من كثرة ما يقال ، ومؤسساتنا الاسلامية قد تقاعست عن أداء الدور المنوط بها فى خدمة قضايانا الاسلامية .

ولم يبق هناك من سبيل غير الجهود الفردية هنا وهناك والتى تمثل الأمل الوحيد فى الوقت الحاضر ، ولكنها غير كافية لمواجهة

---

(٦٢) انظر الفصل الثالث من كتابنا : الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضارى — من سلسلة كتاب الأمة — الدوحة — قطر .

(٦٣) عقد هذا المؤتمر فى جامعة الأزهر بالقاهرة فى شهر شعبان ١٤٠٧هـ (ابريل ١٩٨٧) بعنوان : دور الجامعات الاسلامية فى تكوين الدعاة والتنسيق بين كليات الشريعة .

(٦٤) يراجع فى ذلك بحثنا عن : دور مؤسسات الدعوة حيال الغزو الفكرى . انظر مجلة منبر الاسلام فى عددى شوال وذى القعدة ١٤٠٧ هـ .

مؤسسات علمية كبرى تجند لها شتى الامكانات وتحظى بالدعم المستمر من جانب الحكومات الغربية والدعم الكنسى من جانب الفاتيكان .

ولا ينبغى أن يغيب عن الأذهان أيضا أن قضية تصحيح صورة الاسلام فى الغرب وفى العالم كله لن تتم وتكتمل الا بتغيير أحوال المسلمين أنفسهم فطالما هم على حالهم — الذى لا يسر صديقا ولا عدوا — ستظل الصورة كما هى .

أما اذا قوى جانبهم فكريا وعلميا وروحيا واقتصاديا وعسكريا فسيفرضون احترامهم على العالم كله . فالكرة الآن — كما يقول رجال الرياضة — فى ملعب المسلمين ، والمبادرة فى أيديهم لتغيير أحوالهم . « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (٦٥) .

والنقد الذاتى هو الخطوة الأولى نحو تصحيح أوضاعنا وتصحيح صورتنا فى أعين الآخرين واستعادة احترامنا أمام العالم كله .

وبالله التوفيق ،،،

* * *

---

(٦٥) سورة الرعد ١١ .